دار المشرق

المشرق الرقميّة

مجلّة إلكترونيّة تصدر مرّتين في السنة عن دار المشرق
العدد الخامس، كانون الأول ٢٠١٤

البحث عن سياق القرآن التاريخيّ - نبذة عن الدراسات القرآنيّة الحديثة

الدكتور عمران البدوي

أشارككم المحاضرة الوجيزة هذه من أجل إعطاء نظرة عامّة عن الدراسات القرآنيّة الحديثة بشأن نصّ القرآن والتاريخ الإسلاميّ الباكر بشكل وجيز. ولكن قبل أن نخوض معًا في تفاصيل هذا الحديث، أتذكّر أنّ الدكتور نصر حامد أبو زيد ألقى محاضرة مثيرة جدًّا قبل وفاته العام ٢٠١٠ بقليل عن علوم القرآن في حشد كبير من الأساتذة والطلبة والجمهور العامّ بالجامعة الأميركيّة في بيروت. لا حاجة لنا إلى أن نذكّر أفكار أبي زيد أو معاناته نتيجة لأفكاره المثيرة للجدل. بل ما أريد التعبير عنه الآن هو أنّ الجامعات لا بدّ من أن تبقى منبرًا ومنبعًا للتقدّم الفكريّ والثقافيّ. إلى موضوعنا وهو

سياق القرآن التاريخيّ

هناك تيّاران في الدراسة القرآنيّة الحديثة حول مسألة سياق القرآن التاريخيّ: أحدهما (وهو الأقدم) يوفّق بين النصّ القرآنيّ والتراث الإسلاميّ وأسمّيه التيّار التقليديّ (Current traditionalist)، والآخر يستنبط سياق القرآن من النصّ وحده (إستعارةً لمصطلح Sola scriptura)، ويبتعد عن السيرة

والتفسير بشكلٍ عامّ، وأسمّي هذا بالتيّار التنقيحيّ (Current revisionist). إلاّ أنّه صدرت مؤخّرًا أبحاث تقع مناهجها العلميّة بين هذا وذاك.

نبدأ حديثنا عن المراجع التقليديّة التي يعتمد عليها التيّار التقليديّ، أي التراث الإسلاميّ نفسه.

من التراث الإسلاميّ

ما هو سياق القرآن التاريخيّ؟ بحسب سيرة رسول الله للابن إسحاق (ت.١٥١ / ٧٦٨)، والتي تُعدّ أقدم مصنَّف تاريخيّ محفوظ وموثوق منه في التراث الإسلاميّ، قد نزل القرآن على محمّد النبيّ في جزيرة العرب وهو في مكّة ويثرب على مدى ٢٣ سنة. بالطبع لا أطيل عليكم في الحديث عن السيرة أو حتّى تاريخ صدر الإسلام والفتن والنزاعات السياسيّة في أوّل قرن للهجرة . على كلّ حال أضيف الكثير عن تاريخ النبيّ ورسالته على يد أجيال من العلماء ورجال الدين الذين دوّنوا ذاكرة الدولة العبّاسيّة حول موضوع أصل دينهم، القيم ونسلهم الكريم ولسانهم العربيّ المبين. أذكر من آثارهم **تفسير مقاتل** ابن سليمان، **سيرة** ابن هشام، **تاريخ** الطبريّ، **معاني القرآن** للفرّاء، **كتاب المصاحف** لابن أبي داوود السجستانيّ، **تفسير** ابن قتيبة، **وأسباب النزول** للواحدي. وبعد سقوط الدولة العبّاسيّة على يد المغول العام ١٢٥٨م، أخذ العلماء يعيدون كتابة التفاسير مع التركيز على التسلسل الزمانيّ ومع إعادة النظر في صحّة الأناجيل الأربعة والاستعانة بها. أقصد هنا كتاب **نظم الدرر في تناسب الآيات والصور** للبقاعي. علاوةً على ذلك جمع العلماء آنذاك معرفة القدماء حول الدراسات القرآنيّة ما أنتج موسوعات مثل **البرهان في علوم القرآن** للزركشي و**الإتقان في علوم القرآن** للسيوطي.

كما أنّ السيوطي وغيره من علماء القرآن واللغة قد اهتمّوا بالكلمات والألفاظ والمصطلحات غير العربيّة الواقعة في النصّ القرآنيّ، خاصّةً من اللغات السريانيّة والحبشيّة والعبريّة والإغريقيّة والفارسيّة وغيرها. أذكر في هذا

الصدد قائمة السيوطي، **المهذّب فيما وقع في القرآن من المعرّب**. بالرغم من الاهتمام الشديد والأبحاث العديدة في التراث الإسلاميّ حول موضوع المعرّبات وإدماج **الكتاب المقدّس** في منهج التفسير، إلاّ أنّه أتى خلْق وترسيخ هويّة إسلاميّة ثابتة والتمسّك بالجماعة أو الإمامة على حساب سياق القرآن التاريخيّ بالأخصّ، وتاريخ الإسلام الباكر بشكلٍ عامّ. ماذا أقصد بهذا النقد؟

تمّ نشر التفاسير متعدّدة المجلّدات وتصييغ ما نعرفه اليوم بعلوم القرآن من أجل خدمة العلم الإسلاميّ الأساسيّ والجوهريّ والأهمّ، ألا وهو الفقه. لست متخصّصاً في الفقه وليس هذا موضوعنا على كلّ حال. لكن أوجز وأقول، جاء الفرق بين المكّيّ والمدنيّ، الناسخ والمنسوخ، تفرقة التنزيل المحلّيّ من السفريّ، أسباب النزول، إعجاز القرآن والعشرات من أنواع هذه العلوم من أجل مساعدة الفقيه في استنباط الأحكام وتطبيقها – مثل الحديث تماماً. بالمقابل لا يدهشنا أنّ كبار العلماء في التراث أكّدوا أنّ العربية لا تحتوي على ألفاظ أعجميّة (بما فيهم الشافعيّ)، وجزموا أنّ القرآن من صفات الله مباشرةً (أقصد هنا الأشعري)، كما طعن أهل الحديث والرجال مصداقيّة كثير من الروايات النابعة من سياق مسيحيّ أو يهوديّ باعتبارها "إسرائيليّات" وإبعادها عن التراث. لا أريد إساءة فهم ما أصرّح به الآن، فالاعتبارات التي ذكرناها كانت في غاية الأهمّيّة آنذاك. المسألة هي كيف نحرّر القرآن من التراث اليوم كي نفهمه وندرسه بحسب المناهج الحديثة، خاصّةً النقد التاريخيّ النصّيّ (Textual historical criticism).

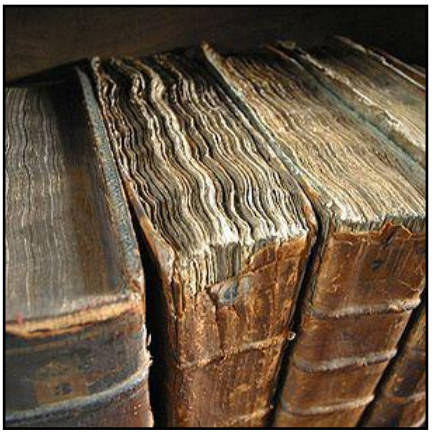

كان وما زال هذا الهدف الأساسي للمفكّرين الإسلاميّين الحداثيّين ، بما فيهم سيّد أحمد خان، فضل الرحمن، عليّ دشتي، نصر حامد أبو زيد، عبد الكريم سروش، أحمد صبحي منصور، عليّ مبروك وغيرهم (هذا الحديث كلّه بصرف النظر عن الحوار العلمانيّ المجاور). عندما التقيت بالدكتور عليّ

مبروك هذا العام في القاهرة، دار حديثنا على دراستيه، إحداهما عن قراءة نقديّة **للقرآن** صبغتها ليست بعيدة عن أعمال المرحوم أبي زيد، وثانيتهما عن تحرّر الدين من التراث على الوجه الذي ذكرناه سابقاً. إن كان هؤلاء المفكّرون الكبار استطاعوا إشعال شرارة النهضة أو الفكر التنويريّ في مجال الدراسات القرآنيّة الحديثة، فذلك بفضل النفوذ الفكريّ في البلاد الإسلاميّة والغربيّة، والذي نحن في صددِه الآن.

التيّار التقليديّ

لا مانع من الاعتراف بأنّ التيّار التقليديّ في الدراسات القرآنيّة الحديثة تأسّس في الأكاديميّة الألمانيّة واعتماداً على نصوص التراث الإسلاميّ التي دوّنت بعد إكمال النصّ القرآنيّ بقرنَين أو يزيد. بعبارة أخرى كان علماء فقه اللغة – الفيلولوجيا – مثل أبراهام جيجر (ت. ١٨٧٤م) وثيودر نولدكي (ت. ١٩٣٠م) – أوّل مَن ساهموا في دراسة لغويّة عميقة للنصّ القرآنيّ (بمعيّة التراث الإسلاميّ) وإدماجه في دراسات الكتاب المقدّس والنقد التاريخيّ النصّيّ الحديث. توالى الباحثون إلى أن وصلنا إلى أنجليكا نويويرث التي تُعتبر من كبار الباحثين في مجال الدراسات القرآنيّة اليوم. تعتقد نويويرث أنّ القرآن، بفضل تناصّه مع كتابات مسيحيّة سريانيّة وكتابات يهوديّة، "كتاب ينتمي إلى أواخر العصور القديمة". كما أنّها تعتمد في تأريخ النصّ القرآنيّ والسور بالذات، على التراث الإسلاميّ وبالدرجة الأولى التقسيم المكّيّ - المدنيّ. هذا المنهج الذي يأخذ بعين الاعتبار النصّ والتراث معاً يهتمّ بتكوين النصّ وتطوّره على حدّ سواء (Diachronic analysis).

التيّار التنقيحيّ

وهنا يتّضح الفرق الجوهريّ بين التيّارين التقليديّ والتنقيحيّ. فإنّ آخرهما لا يأخذ في الاعتبار التراث الإسلاميّ في تقييمه للنصّ القرآنيّ، ومن ثمّ فيبقى النصّ وحده هو سيّد المراجع. بعبارة أخرى لا يهتمّ التيّار التنقيحيّ بترتيب السور ولا بتعريف المكّيّ والمدنيّ، بل يجعل النصّ كلّه متجانس النوع ويعتبره

حصيل تجربة تاريخيّة واحدة. هذا هو التحليل المتزامن (Synchronic analysis). في الواقع ليس التيّار التنقيحيّ مدرسةً وحيدة على نحو التيّار التقليديّ، بل هو عبارة عن تكتّل مدارس وخبراء وآراء شديدة الاختلاف. وعلى رأسهم المدرسة التشكيكيّة لجون ونزبرو (ت.٢٠٠٢م) الذي بدأت فعّاليّته في السبعينيّات من القرن الماضي في لندن. في كتابه الشهير الدراسات القرآنيّة (Qur'anic Studies) يدّعي ونزبرو أنّ إشارة العديد من **الآيات القرآنيّة** لنصوص **الكتاب المقدّس** هي على نموذج شروح المدراش اليهوديّ نفسه، وألغى التمييز بين المكّيّ والمدنيّ وجميع العلوم القرآنيّة المترتّبة عليه، وأخيراً زعم أنّ النصّ القرآنيّ يعود إلى القرن الثالث/التاسع وإلى جماعة يهوديّة-مسيحيّة في بلاد الشام. أثّر فكر ونزبرو في كثير من الباحثين في الدراسات القرآنيّة وتاريخ الإسلام الباكر على حدّ سواء، بما فيهم باتريسيا كرون ومايكل كوك ويهودا نيفو وغيرهم، إلاّ أنّ ردّ فْريد دونر قلّ من حدوديّة هذا الفكر. يقول دونر في كتابه **Narratives of Islamic Origins** الذي أكّد على قِدَم النصّ باعتباره خالياً من النزاعات القبليّة والطائفيّة والمذهبيّة الخاضع لها جميع التراث الإسلاميّ، وباعتباره مختلفاً تماماً عن أيّ نصوص إسلاميّة أخرى (مثل الحديث مثلاً). هذا ودراسات أخرى جديدة تثبت قدم المخطوطات الحجازيّة للقرآن في صنعاء للقرن السابع ميلاديًا جعلت بعض المشكّكين يقدمون تنازلاتٍ فكريّة مهمّة.

في السبعينيّات أيضاً ظهر نموذج مختلف للتيّار التنقيحيّ في غنتر لولينغ وكتابه "Den Ur-Qur'an Über" الذي زعم أنّ ضمن القرآن– أيْ وراء النصّ– نصّ آخر ترنيميّ تسبيحيّ ينتمي إلى جماعة مسيحيّة في الجزيرة العربيّة. وفي العام ٢٠٠٠م نشر كريستوف لوكسينبرج كتابه **Syro-aramäische Lesart des Koran Die** الذي أثار ضجّة رهيبة بين المفكّرين أجمع. زعم لوكسنبرج أنّه فعلاً ثمّة نصّ قديم للقرآن المتواجد بين يدينا اليوم، إلاّ أنّ هذا النصّ ليس عربيّ الأصل بل هو كتاب صلاة كنسيّ سريانيّ محاه أجيال المسلمين الأوائل. من أشهر مسائل كتابه قضيّة "حور العين" في سورة الواقعة (Q 56) حيث يزعم لوكسينبرج أنّ هذا المصطلح يشير إلى أعناب بيض وليست نساء في الجنّة. لا

يتّسع المجال لي الآن كي أذكر إشكاليّة أطروحات لوكسينبرج أو ضعف منهجيّته، إلاّ أنّ كتاباته بالرغم من مشاكلها– أثّرت في الدراسات القرآنيّة بشكلٍ جوهريّ. بعبارة أخرى، يرفض جمهور الباحثين القول بأنّ **القرآن** أصلاً كتاب صلاة كنسيّ سريانيّ، ومع ذلك يعترف الجميع منهم اليوم بأنّ الكتابات السريانيّة المسيحيّة من أواخر العصور القديمة جزء لا يتجزّأ من سياق القرآن ومحيطه الثقافيّ. ويشير جبرئيل سعيد رينولدز، وهو من كبار التنقيحيّين، في كتابه **The Qur'an and Its Biblical Subtext** إلى سيادة الجدل والعظة الدينيّة في **القرآن**، على النمط السريانيّ المسيحيّ المذكور.

ختام

ولكن لا يقتصر السياق القرآنيّ على حواره مع كتابات مسيحيّة وحدها (كما يزعم لكسينبرج) ولا كتابات يهوديّة مدراشيّة وحدها (كما زعم جيجر)، بل هو يقع بين هذا وذاك كما يرد في كتابَيْن جديدَيْن. يضع هولجر زلنتن الثقافة القانونيّة/الفقهيّة القرآنيّة في كتابه **The Qur'an's Legal Culture** : **The Didascalia Apostolorum as a Point of Departure** بين المؤسسة الكنيسة ودراسة الأحبار/الحاخامات–وهذا صحيح. وأخيراً يضيف عمران البدوي في كتابه **The Qur'an and the Aramaic Gospel Traditions** أنّ التجربة القرآنيّة تقع بين الخطابة السريانيّة المسيحيّة وشروحات الحاخامات النابعة – في الحالتين من أواخر العصور القديمة.

أختم بالإشارة إلى أمرَيْن: أوّلهما أنّ الدراسات القرآنيّة كانت تاريخيًّا تعاني من عدم الترابط وشيء من التشوّش وحتّى الفوضى. كانت وما زالت هذه العوامل نتيجة الجدل والصراع الفكريّ حول سياق القرآن التاريخيّ، كما ذكرت سابقاً. ولكن في رأيي ساهم بعض (وبالحري زلنتن والبدويّ) في سدّ الفجوة بين التيّارين التقليديّ والتنقيحيّ من خلال كتاباتهما الأخيرة. لعلّنا نستطيع القول بأنّهما يضعان سياق القرآن بين الكتابات السريانيّة والذاكرة الإسلاميّة (وليس التراث الإسلاميّ بالذات). الأمر الثاني والأخير هو أنّ تطوّر الدراسات القرانيّة كتخصّص أكاديميّ حديث وبشكل مستمرّ لا يطلب بالدرجة الأولى الإجابات

الصحيحة، بل يتطلّب طرح الأسئلة الجريئة والمثيرة للجدل. بدليل أنّ كبار الباحثين اللذين قاموا بتثوير المشهد الفكريّ في الدراسات القرآنيّة أسّسوا أبحاثهم على أطروحات كانت خاطئة. أعود إلى المرحوم أبي زيد الذي يدفعنا إلى ألّا نستسلم للقرآن "شيئًا ثمينًا" وحسب، فهو يدفع الأستاذ والطالب معاً إلى أن يدرساه نصًّا له تاريخ وقابلاً للنقاش. ولذا أعتبر دوري أنا كباحث ومعلّم ليس تسليم طلّابي الكلمة الأخيرة عن القرآن – حاشا وكلا– بل هو جعلهم يوحّدون افتراضاتهم عن هذا النصّ (أي ترك ما كان عليهم آباؤهم) وجعلهم يفكّرون لأنفسهم. يقول الكتاب الكريم، كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ (29:38).